قراءة في
مفاهيم الطبيعة الإنسانية والأخلاق
عند ابن حزم

د . خميس الدليمي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

يعد ابن حزم الاندلسي من أبرز علماء الأمة الإسلامية في الأندلس له مذهب فقهي يعرف بمذهب الظاهرية ، برع في علوم الحديث واللسان والبلاغة والسير والأخبار وله باع طويل في علم الكلام والعقائد . وله العديد من المصنفات في هذه العلوم حاولت في هذا البحث ان اقف على قراءة بعض مفاهيمه في الطبيعة الإنسانية والأخلاق وهو فارس هذا الميدان كما قدمت نبذة مختصرة عن عالمنا الجليل ابن حزم الأندلسي ، ولعل في الإيجاز ما يفي بالعرض ... والله من وراء القصد .

اسمه ونسبه وكنيته :

هو علي بن احمد بن سعيد بن حزم غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي ، كنيته (أبو احمد) [١].

ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هجرية [٢].

نشأته و وفاته :

أشار في كتابه (طوق الحمامة) إلى شئ من سيرته الذاتية وخاصة في مرحلة الطفولة والصبا ، فقد أشار إلى أن طفولته كانت بين النساء ولم يجالس الرجال إلا وهو في مرحلة الشباب بقوله [١]" ونشأت بين أيديهن ، ولم اعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حـــد الشباب "[٣] .

شيوخه :

تلقى ابن حزم المعرفة على عدد من العلماء المعروفين في الأندلس ، وقد أشار ابن حزم إلى أبرزهم في كتابه (طوق الحمامة) منهم احمد بن محمد بن سعيد يكنى (أبو عمر) ويعرف بابن الجسور الأموي (ت ٤٠١ هجرية) ومنهم أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصفار (ت ٤٢٩ هجرية) وأيضا يذكر أبو محمد عبد الله بن يحيى بن احمد المعروف بابن دحون ت ٤٣١ هجرية ومن شيوخه الذي ذكرهم في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل منهم ، احمد بن عمر بن انس العذري ، أبو محمد بن ربيع بن عبد الله التميمي (ت ٤١٥ هجرية) .

تلاميذه:

١- صاعد الأندلسي / أبو القاسم بن احمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٦٢ هجرية) .

٢- الوزير / أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي (ت ٤٩٢) .

٣- علي بن سعيد العبدري

---

[١]- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ٢٩٤/٢

٢- وفيات الاعيان لابن خلكان ١٣/٣

٣- رسائل لابن حزم ص ١٦٦ وانظر معجم الادباء للحموي

مؤلفاته :

جمع (ابن حزم) عن الكتب شيئا كثيرا ، وألف قدرا كبيرا في مختلف العلوم وقد ذكر المقري مجموعة من مؤلفات ابن حزم منها :

١- الإمامية والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها .
٢- كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر و أصحاب القياس .
٣- شرح حديث الموطأ والكلام على مسائله .

وذكر ابن خلكان مصنفات لابن حزم منها :

١- المحلى .
٢- الناسخ والمنسوخ .
٣- حجة الوداع .
٤- المفاضلة بين الصحابة .
٥- أمهات الخلفاء .
٦- الإحكام لأصول الأحكام .
٧- أبطال القياس والرأي .
٨- طوق الحمامة .

ثقافته وشخصيته:

حصل ابن حزم في صباه شيئا من الثقافة الأولية على يد الجواري ثم اخذ يطلب العلم في قبل الأربعمائة بقليل ، وظل مثابرا على طلب العلم في أثناء الفتنة حتى انه كان في سنة ٤٠١ هجـــرية يتلقى الحديث على أستاذه الهمداني في مسجد القبري بالجـــانب الغربي من قرطبة [٢] .

وبعد خروجه من قرطبة أفاد من تجواله في البلاد ومن لقاء بعض العلماء ولكنه لما عاد إليها أدرك أن محصوله من العلم ما يزال قاصرا فأكب على الطلب حتى نال في مدة قصيرة ما لا ينال غيره في العمر الطويل وتمذهب أولاً للشافعي ثم اختار مذهب الظاهر ووضعه موقف المنافح عن موضع من لا بر له من ثقافة واسعة وكان يأسه من الحياة السياسية سببا في تعميق حياته العلمية .

أما عن شخصيته فقد كان ابن حزم ذكيا سريع الحفظ واسع الاطلاع مضحياً في طلب العلم ونشره ، وكان في شخصه متواضعا عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا متدينا كريم النفس ، وقد اتهمه ابن حيان بأنه يجهل (سياسة العلم) لحدة فيه وشدة عارضته في الرد على الخصوم ، وعدم

---

[٢] - طوق الحمامة في الالفة والالاف لابن حزم ص ١٣٥ مصر ط ١ .

الاعتماد على التلميح والتعريض والأناة في التوجيه وربما كان بعض ما يشوب هجماته من مرارة راجعا إلى فيض عاطفي أصيل أم احتسبه التدين في نفسه [٣].

منزلته العلمية :

تتضافر كل الروايات على عظم منزلة ابن حزم العلمية ، جاء في وفيات الأعيان " كان اجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام و أوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار "[٢].

قال بحقه الذهبي في كتابه (العبر في خبر من غبر) " كان إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة " [٣].

ومدحه الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هجرية) بقوله " وجدت في أسماء الله تعالى كتابا ألفه أبو محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه "[٤].

أولا الطبيعة الإنسانية

١) النفس الروح الجسد :

تشكل هذه المفاهيم الثلاثة ركنا أساسيا في البناء الفلسفي لأي فيلسوف وليس ثمة فيلسوف إلا و أول برأيه فيها وتعرض لها بالتحليل ، يقر ابن حزم بان (النفس والروح) اسمان مترادفان لمعنى واحد ومعناها واحد وان من زعم بان الروح غير النفس قد زعم بأنهما شيئان وقال ما برهان له بصحته وهذا باطل له فليس بصادق [٥].

وقد ذكر عدة صفات للنفس ، ابرز هذه الصفات هي :

١- وجود النفس سابق لوجود الجسد ، فالنفس مخلوقة من عهد آدم (عليه السلام) مصورة عاقلة قبل أن يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها في الأجساد [٦].

٢- النفس نوع للجوهر فهي مركبة من موضوع ومحمول وهي قائمة بنفسها .

٣- النفس جوهر مادي لانها جسم طويل عريض عميق ذات مكان .

٤- النفس حركة اختيارية معلومة بلا شك في ان كل متحرك هو جسم .

٥- النفس لا تتغذى ولا تنمو ، والنفس تموت لان الله تعلى قال (كل نفسٍ ذائقة الموت) الأنبياء /٣٥ وهذا الموت هو فراقها للجسد فقط برهان ذلك قوله تعالى (اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الأنعام /٩٣ [٤]. ويذكر أن للفظ الإنسان استعمالات كثيرة :

---

[٣] - تاريخ الادب الاندلسي د. احسان عباس ص ٢٥٨ دار الثقافة بيروت ط/ ١٩٦٠١ .
٢- وفيات الاعيان ٣٢٦/٣ .
٣- العبر في خبر من غبر للذهبي ٣٠٦/٢ .
٤- رسائل لابن حزم ص ١٩٦ .
٥- المحاسن لابن حزم ٥/١ .
٦- الملل في الفصل لابن حزم ٧٠/٤ .
[٤] - الملل في الفصل ٧٤/٢-٩٠ .

١- يراد به للنفس فقط لقوله تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا) المعارج/١٩-٢١

٢- يراد به الجسد فقط لقوله تعالى (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) الرحمن/١٤ .

٣- يطلق على النفس والجسد معا فنقول في الحي هذا انسان [٢].

وقد استمد نظرته هذه للنفس او الروح الانسانية من اصوله الاسلامية ومن اطلاعه على الفكر اليوناني . اما ان تكون مخللة لجميع الجسد من خارج كالثوب ، واما ان تكون متخللة لجميعه من الداخل كالماء في المدرة واما ان تكون في مكان واحد وهوالقلب او الدماغ وتكون قواها منبثة في جميع الجسد ويشير الى ان النفس الانسانية تتركب من قوى مختلفة كالعدل الذي يزين لها الإنصاف ، وكالغضب والشهوة اللذين يزينان لها الجور والفهم الذي يجذبها الى الحق والجهل الذي يطمس عليها الطرق ومنها قوة التميز التي سماها الاوائل (المنطق) فجعل لها خالقها سبيلا الى فهم خطابه عز وجل ومنها قوة العقل التي تعين النفس على تصر العدل [٣].

٢ - العقل :

يثق ابن حزم بالعقل ويكرمه ولكنه لا يسلم له تسليما أبداً بل يضعه في مكانه الحق إذ يجعل للعقل إدراكا سليما ، ويرى أن الحواس مع العقل أدوات للتحليل والتركيب المعرفي وكل ما لا يرتد إلى أوائل الحس وبدايات العقل يعدها دعاوى مجردة لا يقوم على صحة شئ منها دليل ويستطيع كل شخص أن يدعي ما يشاء وما كان هكذا فهو باطل [٤] . وقد عد العقل معيارا للحكم على القوى التي نكسب بها المعرفة وهي (الحسن والظن والتخيل) فخداع الحسن يستبان بالعقل كما انه قوة تميز بها النفس الأشياء والقوة التي ترجع إليها في صحة الديانة وصحة العمل الموصلين الى فوز الآخرة وبه تعرف حقيقة العلم ونخرج من ظلمة الجهل [٥] . فالعقل قوة نفسية يرتبط بها التميز والفهم والتعقل والادراك والفضيلة والعقل نوعان:

١- العقل المميز ووظيفته تميز الاشياء المدركة بالحواس والفهم وحدود هذا العقل معرفة صحة الديانة وصحة العمل الموصلين الى فوز الآخرة وصحة العلم .

٢- العقل الفاضل ووظيفته استعمال الطاعات واجتناب المعاصي فهو استعمال ما ميز الانسان.

كما يرى أن العقل لا يحرم شيئا ولا يوجبه لأنه عرض محمول في النفس ومن المحال ان تحكم الأعراض وتوجب وتشرع و إنما في العقل معرفة الأشياء على ما هي عليه من كيفيتها

٢- الملل في الفصل ٥/٦٥ – ٦٦ .
٣- الاحكام في اصول الاحكام ص ٥ .
٤- الفصل في الملل والاهواء والنحل ٢/١٣٢ .
٥- الاحكام في اصول الاحكام ص ٢٧ .

[٥].وحد العقل استعمال الطاعات والفضائل واجتناب المعاصي والرذائل فالعقل طاعة واللاعقل معصية ، وقد نص الله تعالى في كتابه (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) الملك/١٠ [٢].

فالعقل الذي يميز الإنسان عن الحيوان والجماد يجب أن يستعمل في إسعاد الإنسان و ذلك باستعمال الطاعات والفضائل واجتناب المعاصي والرذائل [٣].

واللذة العقلية عند ابن حزم اعظم من اللذة الجسدية ، ولهذا فان الحكيم والعالم والعاقل تركوا اللذات الجسدية مؤثرين طلب الفضائل عليها [٤]. ولهذا فهو يحث على طلب العلم لان العلوم برأيه تزيد العقل جودة وتصفية من كل آفة [٥]. ولم ينس أن ينصح بالعلوم التي تقرب من الله تعالى والوصول إلى رضاه وينصح بحضور مجالس العلم والاستزادة منه [٦]. والعقل هو الذي يدبر أمور الإنسان كما يرى ابن حزم [٧].والعاقل هو من لا يفارق ما أوجبه تمييزة [٨].حيث يميز عيوب نفسه وسعى إلى قمتها وعكس العاقل الأحمق الذي يجهل عيوب نفسه وذلك لضعف تمييزه [٩].

٣) الجبر والاختبار :

يُعَدُّ ابن حزم من المؤيدين لمبدأ الحرية والاختيار ، والإرادة والتميز فالله تعالى خلق فينا علما تعرف به أنفسنا الأشياء على ما هي عليه وخلق فينا مشيئة لكل ما خلق فينا مما يسمى فعلا فخلق فيه استحسان ما يستحسنه واستقباح ما يستقبحه فنحن مختارون قاصدون مريدون مستحسنون وكارهون متصرفون علما [٦]. وقد أوجد لنا حولا وقوة ولكن لم يكن لنا ذلك إلا بالله تعالى

---

٥ - رسائل لابن حزم المجموعة الاولى / تحقيق احسان عباس .
٢ - رسائل لابن حزم المجموعة الاولى ص ٣٧٨ / تحقيق احسان عباس .
٣ - الاخلاق لابن حزم ص ٥٥ .
٤ - الاخلاق لابن حزم ص ١٣ .
٥ - الاخلاق لابن حزم ص ٢٢ .
٦ - الاخلاق لابن حزم ص ٨٩ .
٧ - الاخلاق لابن حزم ص ٢٧ .
٨ - الاخلاق لابن حزم ص ٧٧ .
٩ - الاخلاق لابن حزم ص ٦٣ .

٦ - الفصل في الملل والاخلاق والنحل ٥١/٣- ٥٢ .
٢ - الفصل في الملل والاخلاق والنحل ٢٣/٣ – ٢٥ .
٣ - رسائل ابن حزم / المجموعة الاولى ص ٣٧٩/٣٤٥ /٤٠١ .
٤ - الاخلاق لابن حزم ص ٢٧ .
٥ - الاخلاق لابن حزم ص ٥٨ .
٦ - الاخلاق لابن حزم ص ٥٨ .
٧ - الاخلاق لابن حزم ص ٢٥ .
٨ - الاخلاق لابن حزم ص ٢٩ .

ويستشهد بقوله تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة) القصص/ ٦٨ . فالاختيار الذي هو فعل الله تعالى وهو منفي عن سواه هو غير الاختيار الذي أضافه إلى خلقه [٢] . ويشير إلى أن الفعل لا يكون نتيجة الاستطاعة وحدها بل لابد من زوال الموانع وتوفيق الله تعالى فالقوة التي ترد من الله تعالى على العبد فيفعل بها ما ليس طاعة ولا معصية تسمى عزما أو قوة أو حولا لهذا يقال لا حول ولا قوة إلا بالله .

ثانيا : الأخلاق

يكاد يكون كتاب الأخلاق لابن حزم ما بين نصيحة لاقتناء الفضائل أو تحذير من إتيان الرذائل ، او كما يعبر عنهم أحيانا بالطاعات والمعاصي وهو ينصح بالاقتداء بالرسول ﷺ واستعمال أخلاقه وسيرته ما أمكن ، كما يذكر أن أصول الفضائل أربعة هي (العذل والفهم والمنجدة والجود) ، وأصول الرذائل أربعة هي (الجور والجبن والشح والجهل) وليست هناك فضائل في ذاتها ولا رذائل في ذاتها لان الله تعالى هو الذي حدد الحسن والقبح في الأشياء وان الفضائل وسيطة بين الإفراط والتفريط فكلا الطرفين مذموم والفضيلة بينهم محمودة [٣] ، والمعتدل في الحياة هو من يلتزم التوسط الذي هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين وان من يميل إلى الإفراط أو التفريط فقد ابتعد عن الاعتدال [٤]. فالذي يميز الفضائل والرذائل هو ما تحس به من انس الفضيلة والطاعة ونفور من الرذيلة والمعصية .وبعد أن حدد الفضائل والرذائل الأربع فهو يذكر كثيرا من الفضائل حاثا على التمثل بها ، وكثيرا من الرذائل محذرا منها ، فالصدق فضيلة مركبة من العدل والنجدة والكذب رذيلة متولد عن الجور والجبن والجهل . ويعد الكذب اقبح رذيلة ، حتى انه يعد الكفر نوعا من أنواعه فكل كفر كذب ، وان الكذب جنس والكفر نوع تحته[٥].
ويذكر الفضائل الأخرى كالنزاهه والحلم والقناعة ، والرذائل مثل الحرص والحسد [٦]. فالصبر فضيلة والغدر رذيلة [٧].والشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم وعن المستجير المظلوم ، والتقصير عن ذلك جبن[٨]. وحد العفة ان تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحل لك فما عدا ذلك فهو عهر، والوقار فضيلة وهو وضع الكلام في موضعه وهو ضد السخف [٧].
والوفاء فضيلة مركب من العدل والجود والنجدة ، وهو ضد الجور[٢]. أما عن رذيلة العجب فينصح من ابتلي بها أن يتخلص منها وذلك فليفتش مافيه من الرذائل ، فإذا اعجب المرء بعقله فكل فكرة سوء تمر بخاطره تدل على نقص عقله ، وإذا اعجب بآرائه فليتفكر في سقطاته ، وإذا اعجب

---

٧ - الاخلاق لابن حزم ص ٣٠ .
٢ – الاخلاق لابن حزم ص ٥٥ .
٣ – الاخلاق لابن حزم ص ٣١ ٧٢ ٧٧ .
٤ – الاخلاق لابن حزم ص ٤٧ .
٥ – الاخلاق لابن حزم ص ٥١ .

بخيره فليتذكر معاصيه وتقصيره وإذا اعجب بعلمه فإنها موهبة من الله وليتفكر بالذي خفا عليه وما يجهله عن أنواع العلم وإذا اعجب بماله فكم من خسيس ساقط أغنى منه وان اعجب بنسبه فهذه أسوء صفة لان المهم هو سيرتة في هذه الحياة وإذا اعجب بقوة جسمه فليتفكر أن البغل والحمار والثور أقوى منه ولذلك ينصح ابن حزم بالعدل لان العدل بعيد عن العجب وذلك لعلمه بموازين الأشياء وان حد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه ولهذا فالعدل يلجأ إليه كل خائف ولا ترى أنسانا يذم العدل إذا رأى من يريد ظلمه دعا إلى العدل وأنكر الظلم وذمه [٣] .

ثالثا :المحبة

والمحبة عند ابن حزم هي الرغبة في المحبوب وكراهية منافرته[٤]. ودرجات المحبة عنده خمس أولاها الاستحسان وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنه أو يستحسن أخلاقة وهذا يدخل في باب التصادف ثم الإعجاب وهو رغبة الناظر في المنظور إليه وفي قربه ثم الألفة وهي الوحشة إليه متى غاب ثم الكلف وهو غلبة شغل البال به وهذا النوع يسمى العشق ثم الشغف وهو امتناع النوم والأكل والشرب وربما أدى ذلك إلى المرض أو التوسوس أو إلى الموت . وهناك من شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات ، وعلى الرغم من أن ابن حزم يبدأ بذكر الحب الجسدي الا انه يقول ان ذلك يلحقه الملل وان الحب الحقيقي الخالد لا يكون الا في الجنة فهي دار القرار[٥].

الملاحظ ان ابن حزم يعلج موضوع المحبة من كتاب الاخلاق بروح الفقيه الاديب ويعالج موضوع الحب في كتابه طوق الحمامة بروح فلسفية اذ ان اثر الحب الافلاطوني واضح في ثنايا الكتاب .

رابعا :الصداقة

يقول ابن حزم الصديق الحق من يؤثر صديقه على نفسه [٨] .وإذا الإنسان صديقه يجب ان ينصحه بلين [٢] . والصديق عنده هو الذي يسره صديقه ويسوؤه ما ساء صديقه [٣].فيقول فما رأينا هذين العملين الا سببا للقطيعة وان ظن أهل الجهل أن فيهما تأكيدا للصلة وليس الامر كذلك لان

---

٨ - الاخلاق لابن حزم ص ٤٣ .
٢ – الاخلاق لابن حزم ص ٣٤
٣ – الاخلاق لابن حزم ص ٣٩ .
٤ – الاخلاق لابن حزم ص ٧٢ .
٥ – رسائل لابن حزم الاندلسي ص ٣٥٤ .

هذين العقدين داعيان كل واحد إلى طلب حظ نفسه والمؤثرون على انفسهم قليل جدا فإذا اجتمع طلب كل امريء حظ نفسه وقعت المفارغة ومع وقوعها فساد المودة .

خامسا : الممارسة

تمام العدل عند ابن حزم رياضة النفس ، ورياضة النفس اصعب من رياضة الأسد ، لان الأسد إذا سجن في البيوت التي تتخذها لها الملوك امن شرها والنفس إذا سجنت لم يؤمن شرها [٤]. فهو يؤمن رياضة النفس واتخاذ الأنبياء والأفاضل من الحكماء وذوي السمعة الجيدة قدوة في أفعالهم وأقوالهم والاستمرار في هذا الطريق حتى يعود إلى الصواب[٥].

المصادر والمراجع

-الأحكام في أصول الإحكام : ابن حزم (علي بن محمد ت ٤٥٦ ه) ، القاهرة .
-الأصول والفروع : ابن حزم ،تحقيق محمد عاطف العراقي ط ١، القاهرة.
-تاريخ الأدب الأندلسي : د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٠ .
-رسائل ابن حزم الأندلسي (المجموعة الأولى) ، تحقيق د. إحسان عباس ، مصر .
-رسائل ابن حزم الأندلسي ج١ ،٣ ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت .
-طبقات الأمم ، صاعد الأندلسي ،تحقيق أبو علوان ، بيروت .
-طوق الحمامة في الألفة والآلاف ابن حزم ، ط١ ، مصر .
-العبر في خبر من غبر الذهبي (محمد بن احمد ت ٧٤٨ ه) ، تحقيق أبو هاج محمد السعيد ، بيروت .
-الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم ، بغداد .
-كتاب الأخلاق والسير ، ابن حزم ،تحقيق ندى تويش ، بيروت ١٩٦١ .
-المحلى ، ابن حزم ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مصر .
-معجم الأدباء ياقوت الحموي (٦٢٦ ه) ، بيروت .
-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت .
-وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، ابن خلكان ، تحقيق د. إحسان عباس ،ط٤ .